

# **الفصل الخامس**

**تفسير مكانة المرأة  
من فوق سبع سماوات**



## مدخل:

إن كل أشكال القوانين الوضعية، وجميع أنماط التشريعات البشرية يضعها البشر ثم ينقضونها من بعد ذلك، لأنها عادة ماتكون غير معبرة عن كل ما يريدون، كما أنها تحتوي من المثالب والعيوب بقدر ما في هؤلاء البشر من نقائص ونزعات وأهواء تتغير على مر الأيام، وعلى مر العصور والأزمنة.

ولقد شهدت المجتمعات البشرية، باتساع الكرة الأرضية، وعلى مر عصور التاريخ محاولات من البشر لإصلاح عيوب في مجتمعاتهم ظنوا يوماً أنهم قادرون على إصلاحها، ولكن خابت جهودهم وقصرت مساعيهم، ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى لب العلاج وجذوره لسبب بسيط هو أنهم لم يفهموا، أو لم يتوصلوا إلى فهم روح الإنسان، ومن ثم لم يعرفوا كيفية التعامل معها، بينما الحق تبارك وتعالى هو القادر على أن يتعامل مع ذلك الإنسان، وتلك الروح لأمر بدهى لا يغيب عن عقول الكثيرين، بل ولا ينبغي أن يغيب عن الجميع، وهذا الأمر هو أن خالق البشر هو العليم بأمر علاجهم: «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» (الملك/ ١٤) (\*).

ونضرب مثلاً واحداً على فشل التشريعات البشرية، من التاريخ المعاصر، ومن أعتى المجتمعات تقدماً في الماديات، ونقصده به المجتمع الأمريكي ومشكلته مع تعاطي الخمر، فلقد اكتشف أولو الأمر فيه أن هذه العادة المرذولة ذات أثر خطير ومدمر على الفرد والأسرة والمجتمع ككل، فأصدرت الحكومة الأمريكية قراراً يقضي بمنع تعاطيها، ولكن هذه الحكومة لم تستطع تنفيذ هذا القانون بسبب الأفراد والعصابات التي تفننت في صناعتها سرا، وفي تهريبها. وقامت حرب خطيرة بين

---

(\*) يمكن في هذا المجال مراجعة كتاب الشيخ محمد متولي الشعراوي: الإسلام حداثة وحضارة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٥م، وكذا كتاب الشيخ محمد قطب: دروس تربوية من القرآن الكريم، المجموعة الإعلامية ومكتبة المأمون، جدة ١٤١١هـ.

السلطة في البلاد وبين المنحرفين ، عصابات وأفرادا ، استخدم فيها كل شيء نتصوره من رجال الأسطول لمراقبة الشواطئ ، منعا للتهريب ، إلى ضباط الطيران لمراقبة الجو ، بالإضافة إلى رجال البوليس على الأرض تعقبا للسكري وللمهربين ، وبحثا عن المصانع السرية لذلك الوباء اللعين ، بالإضافة إلى الاستعانة بالإعلام في كل المجالات من الصحافة إلى الإذاعة أو من الكتب إلى النشرات ، ومن السينما إلى المحاضرات . . . الخ .

ويقدرون ثمن ما أنفقته الدولة - أمريكا - في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليون ٠٠٠,٠٠٠,٦٠ من الدولارات (كان ذلك في أوائل العشرينات من هذا القرن ، وذلك مبلغ رهيب بمعايير ذلك الوقت ) وأن ما أصدرته من كتب ونشرات بلغ (عشرة بلايين) ٠٠٠,٠٠٠,١٠ صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ ذلك القانون (قانون تحريم الخمر) في مدة أربعة عشر عاما لا يقل عن (مائتين وخمسين مليونا) ٠٠٠,٠٠٠,٢٥٠ دولار . وقد أعدم في هذه المدة (ثلاثمائة) ٣٠٠ نفس ، وسجن ٣٣٥,٥٣٢ شخص ، وبلغت الغرامات (سته عشر مليونا) ٠٠٠,٠٠٠,١٦ من الدولارات ، وصادرت الحكومة من الأملاك ما بلغ ٠٠٠,٠٠٠,٤٠٤ مليون دولار . ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر ، وعنادا في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغاء قانون تحريمها عام ١٩٣٣ م ، وإباحة تعاطيها إباحة مطلقة .<sup>(١)</sup>

وينتقل بنا الشيخ القرضاوي نقلة تاريخية مقارنة يحدثنا فيها عن العرب وعن غرامهم بالخمر ، وقد فعل ذلك قبله الشيخ أبو الحسن الندوي ، ولكن ليس بمثل هذا التفصيل ، يقول القرضاوي :

« لقد بعث محمد رسول الله وللخمر في المجتمع العربي سريان وانتشار ،

(١) أبو الحسن الندوي ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ .

تجري من نفوس أبنائه مجرى الدم ، يتمدحون بشربها ، ويفتنون في وصفها ووصف مجالسها وندمائتها وأقداحها . . . ولم يعرف المجتمع الجاهلي إلا أفرادا معدودين على الأصابع عافوا شرب الخمر مروءة ، وسجل لهم التاريخ ذلك كمأثرة نادرة ، كزيد بن عمرو بن نفيل .

ومما يدل على اهتمامهم بالخمر أنهم وضعوا للتعبير عنها أسماء كثيرة وكتابات مختلفة ، وألقابا متعددة : المدامة - السلافة - الراح - الصهباء - ابنة العنقود - ابنة الكرم - بنت الحان - بنت الدنان . . . إلى آخر الأسماء التي بلغت أكثر من مائة . . . !

كما أن تجارتها عندهم كانت في نماء وازدهار . ومن أدلة شغفهم بها ، وتمكنها من نفوسهم ، أن كثيرا من الصحابة بعد أن نزلت الآياتان الأوليان في شأن الخمر : « قل فيها إثم كبير ومنافع للناس » (البقرة / ٢١٩) « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » (النساء / ٤٣) . . ولم يكن التحريم فيها صريحا حاسما ، لم يزالوا يشربون الخمر ، مادام في النص متسع لهم .<sup>(١)</sup>

ذلك أن الإسلام تدرج معهم في تحريم الخمر - وفقا بهم وتيسيرا عليهم - حتى نزلت آية المائة الصريحة القاطعة « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » . (المائدة / ٩٠ - ٩١) .

وهنا رأينا العجب . . رأينا الرجل يحطم كأسه ، ويسفك ما عنده من خمر في الطريق ، حتى تفيض طرقات المدينة بما كان عند الناس منها .

(١) يوسف القرضاوي، الإيهان والحياة، مرجع سابق، ص ص ٢١٩-٢٢٠ .

عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : « يا أيها الناس : إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمرا ، فمن كان عنده شيء فليبعه ولينتفع به » ( وذلك قبل التحريم النهائي ) . قال أبو سعيد : فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى قال : « إن الله حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية - يعني آية المائدة السابقة - وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع » . قال أبو سعيد : فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرقات المدينة فسفكوها أي صبوها وأسالوها - رواه مسلم ) .

وعن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة وأبي بن كعب فجاءهم آت فقال : إن الخمر حرمت . . فقال أبوظلحة قم يا أنس فأهرقها ، فأهرقتها . وعن أبي موسى الأشعري قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة - أي حلالاً- إذ قمت حتى أتى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر » إلى قوله . . فهل أنتم متتهون » ( المائدة / ٩٠-٩١ ) . . فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم . . قال : وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضا ، وبقي بعض في الإناء . . فقال بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطنهم فقالوا . . انتهيينا ربنا . . !!

فهل رأيت البشرية مثل هذا انتصارا على النفس ، وسرعة في الإستجابة وقوة في الانقياد للأمر ، مهما يكن مخالفا للعادات ، مصادما للشهوات . (١)؟؟ هذا ولقد أوردت هذا المثال تفصيلا حتى نتبين الفرق بين أمر يصدر من البشر فيقاومه البشر حتى يتراجع المشرعون وينقلبوا على رؤوسهم فيما اعتزموه ، وبين أمر يصدر من المولى

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٢٠-٢٢١ .

عز وجل ، فيصدع به المؤمنون في لحظات ، وسوف يقودنا ذلك إلى مايتعلق بالنساء ، وبحقوق النساء ، وكيف صدرت التشريعات بخصوصها من فوق سبع سماوات ، من لدن حكيم خبير . . فانصاع لها المسلمون فوراً ، خاصة وقد رأوا نبيهم الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، يقود ركبهم في أكبر حركة في التاريخ ، رعاية للمرأة ، وصونا لكرامتها ، وحفظاً لمشاعرها ، وحرصاً على مصالحها ، ومطالبة لأصحابه ، رضوان الله عليهم أجمعين ، بأن يقتدوا به ويفعلوا مثله ، بل إن هذه المطالبة جاءت من الله عز وجل ، حين قال لهم : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » (الأحزاب / ٢١) .

والآن لعلنا نقوم سوياً لنرى كيف تغيرت مكانة المرأة من فوق سبع سماوات ، في آيات قرآنية تتلى على الناس إلى أن تقوم الساعة ، وتبين لهم وضع المرأة في الإسلام ، وهي طفلة يستقبلها أبواها بالحب والترحاب ، ثم وهي ابنة ناضجة يؤخذ رأيها عندما تطلب للزواج ، وكذا وهي زوجة ترعى أسرتها ، وتربى أجيالاً للإسلام ، ثم وهي أم يحترمها الجميع ويجلبونها في منزلة وضعها الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، قبل الأب بمراحل .

**أولاً :**

### **مكانة المرأة بالنسبة للرجل :**

كما سبق القول في بعض فصول هذا الكتاب فإن الإسلام قد وضع المرأة في مكانة مساوية للرجل منذ الخليقة ، فقد قال ، عز من قائل : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً » (النساء / ١) ، كما قال عز وجل : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل

منها زوجها ، ليسكن إليها» (الأعراف / ١٨٩) .

فالمراة ، وكما يقول الشيخ محمد عرفة مساوية للرجل في الإنسانية ، حيث أن كلمة الناس تشمل في مفهومها ومدلولها الرجل والمرأة ، فهي مخاطبة ، كما هو مخاطب في هاتين الأيتين باعتبار خصوصية الإنسانية فيها . . . وهي أخت الرجل ، إذ تنسب هي وهو إلى أب واحد ، وأم واحدة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» (الحجرات / ١٣) . فهو - سبحانه ينادى الجميع : «يا أيها الناس» معلنا أنه خلقهم من أب واحد وأم واحدة «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» ، فيقرر - بذلك - الأخوة ، أخوة النسب بين الرجل والمرأة ، فكل منهما شقيق الآخر وصنوه ، كما قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : «إنما النساء شقائق الرجال» . (رواه احمد وأبو داود والترمذي عن عائشة ، والبزار عن أنس) .

والأخوة على هذا ، تقتضي المساواة في الانتساب إلى الأبوين ، فلا يكون أجد الشقيقين أوفر حظاً في النسبة إلى أبويه من الآخر ، فالمرأة على هذا مساوية للرجل في النسب إلى الأبوين . (١)

ويؤكد الشيخ محمد عزة دروزة على قضية المساواة بين الرجل والمرأة من آية أخرى من آيات القرآن الكريم ، حيث يقول بأن أول ذكر للأنثى ورد في سورة الليل : «وما خلق الذكر والأنثى» . (الليل / ٣) ، ففي جمع الذكر والأنثى في القسم قرينة على نظرة الله تعالى المتساوية لهما أولاً ، أما بقية الآيات : «إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى ، وصمدق بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى» . (الليل / ٤-١٠) ففي هذه الآيات تقرير لمبدأ تكليف الذكر والأنثى على السواء ، تكليفاً متساوياً بكل ما يتصل بشؤون الدنيا

(١) محمد بن عبدالله عرفة ، مرجع سابق ، ص ٣٧-٣٨ .

والدين ، ولبدأ ترتيب نتائج سعى كل منهما ، وفقاً للعمل الذي يصدر عن كل منهما. (١)

وفي سورة الأعراف نجد هذه الآية : «هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ليسكن إليها». (الأعراف / ١٨٩) . فهذه الآية تنطوي على تقرير كون الرجل والمرأة زوج يكمل أحدهما الآخر ، وكونهما - بناء على ذلك - في مرتبة واحدة ، من ناحية الحياة الإنسانية ، وكل ما في الأمر أن لكل منهما وظيفة تناسلية مختلفة عن وظيفة الآخر وحسب .

وفي سورة الروم نقراً : «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» (الروم / ٢١) . والآية تبين حكمة الله - سبحانه وتعالى - في قيام الحياة بين الزوجين على أساس المودة والرحمة ، ثم إن هذا المعنى مدعوم بقوة وصراحة أكثر في الآية : «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» (البقرة / ٢٢٨) والتي تعني فيما تعنيه أن كل ما يحق للزوج طلبه وانتظاره من زوجته ، من أمور مشروعة ، من طاعة .. وأمانة .. وعفة .. وإخلاص .. وحسن معايشة ومعاملة .. ومودة .. واحترام .. وثقة .. وتكريم .. وبر .. وترفيه .. ومراعاة مزاج .. ورعاية مصلحة .. وقضاء حاجات .. وعدم مشاكسة .. وعنف وبذاءة .. ومضارة .. ومضايقة .. وأذى .. وسوء خلق .. وتكبر .. وتجبر .. وازدراء .. وتكليف ما لا يطاق ، يحق للزوجة طلبه وانتظاره من زوجها (٢) .

---

(١) محمد عزة دروزة ، مرجع سابق .  
وكذلك انظر : وهبي سليمان غاوجي : المرأة المسلمة ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ١٣٩٥ هـ ، ص ٢٩ .

وأيضاً انظر : عبد الودود شلبي : في محكمات التاريخ ، دار الشروق ، القاهرة - بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م ، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

ويبين البابطين أنه على أساس وحدة القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة ساوى الله عز وجل بينهم في أصول التكاليف الشرعية ، ورتب على ذلك جزاء واحدا يتساوى فيه الرجل والمرأة ، سواء كان الجزاء ثواباً أو عقاباً .

ففي جانب الثواب قال الله سبحانه وتعالى : «ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً» (النساء / ١٢٤) أما في جانب العقاب فقد قال سبحانه وتعالى : «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا ، نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم» (المائدة / ٣٨) ، وقال سبحانه وتعالى : «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» (النور/٢)(١) .

وينظر الشيخ مصطفى السباعي إلى الموضوع من زاوية أخرى ، وهي زاوية إبعاد التهمة التي علقت بالمرأة عبر الحضارات المختلفة ، والتي مؤداها أن المرأة كانت هي السبب في الخروج من الجنة ، بالنسبة لها ولأدم معا . يقول الله تعالى : «فأزلهما الشيطان عنها ، فأخرجهما مما كانا فيه» (البقرة / ٣٦) . ويقول عز من قائل : «فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ماوري عنهما من سوءاتهما» (الأعراف / ٢٠) . ويقول عن توبتهما معاً : «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» (الأعراف / ٢٣) .

بل إن القرآن في بعض آياته قد نسب الذنب إلى آدم وحده ، فقال : «وعصى آدم ربه فغوى» (الأحزاب / ٣٥) . ثم قرر القرآن مبدأ آخر يعفى المرأة من مسؤولية

---

(١) أحمد بن محمد بن محمد بن عبيد الله البابطين ، مرجع سابق ، ص ص ٥٩-٦٠ .

أمها حواء ، وهو يشمل الرجل والمرأة على السواء : «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون» (البقرة/ ٣٦) (١) .

ويقول العسال بأن الإسلام قد ساوى بين المرأة والرجل حيث وجه لها خطاب التكليف مثلها مثل الرجل سواء بسواء « كل نفس بما كسبت رهينة» (المدثر/ ٣٨) .  
والنفس تشمل الذكر والأنثى .

«وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» (النجم/ ٣٩) .

والإنسان يشمل الذكر والأنثى ، ومن هنا أوجب الإسلام عليها ، كما أوجب على الرجل ، معرفة العقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام في المأكل والمشرب وسائر التصرفات . (٢)

ويستدرك العسال « نعم رفع الإسلام عنها الإلزام ببعض التكاليف ، لا لأنها غير أهل لها ، ولو فعلتها لم تقبل منها ، ولم تثب عليها ، ولكن أبيع لها تركها تخفيفا عنها ، وترخيصا لها ، وبعدا بها عن مزاحمة الرجال ، وتفريغا لها في خدمة البيت والإشراف عليه ، ورعاية الأبناء ، وذلك كما في صلاة الجمعة والجهاد ، ولو أنها أثرت حضور الصلاة الجامعة ، أو دخلت الصفوف المحاربة لما كان عليها من حرج في الدين . (٣)

ويورد أحد الكتاب الآيات المبشرات في الآخرة ، بالنسبة للجنسين معا ، الرجل والمرأة ، دون تفرقة ، لأنها أنزلت من عند أحكم الحاكمين ، فنقرأ «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في

(١) مصطفى السباعي ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥-٢٦ .

(٢) أحمد محمد العسال : الإسلام وبناء المجتمع ، دار القلم ، الكويت ، ط ٨ ، (بدون تاريخ) ، ص ص

١٦٩-١٧٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٠ .

جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » (التوبة / ٧٢) .  
وقال عز وجل : « ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار  
خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » (الفتح / ٥)  
وقال تبارك وتعالى : « يوم ترى المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ،  
بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ذلك الفوز العظيم »  
(الحديد / ١٢) (١) .

ويفرق سيد قطب ، رحمه الله ، بين مكانة المرأة في الإسلام ، ومكانتها في  
الحضارات السابقة عليه ، حيث أن الإسلام بيّن وحدة الزوجين وتساويهما من  
الناحية الإنسانية ، ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم أن المرأة  
جنس منحط بذاته عن جنس الرجل . .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها  
، وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً » (النساء / ١) ، كما عنى الإسلام ببيان وحدة  
الزوجين وتساويهما من ناحية علاقتها بربهما وجزائهما عنده :  
« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم  
من بعض » (آل عمران / ١٩٥) .

« إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ،  
والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ،  
والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم  
والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً »

---

(١) أحمد اسماعيل المقدم (جمع وترتيب) عودة الحجاب (القسم الثاني) المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة  
الجاهلية ، دار طيبة ، الرياض ، (بدون تاريخ) ، ص ص ٦٨ - ٦٩ .

(الأحزاب / ٣٥) (١).

ثم فيما بين الرجل والمرأة ، وبعد أن ثبت تساويهما ، عنى الإسلام ببيان نوع الصلة بين شقى النفس الواحدة ، وأهداف هذه الصلة المتنوعة ، سواء ما يختص منها بالزوجين ، وما يختص منها بالمجتمع الإنساني كله . .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (الروم / ٢١) .

« هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » (البقرة / ١٨٧) .

« نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم » (البقرة / ٢٢٣) (٢) .

وكأنى بشهيد الإسلام ، رحمه الله ، يريد أن يذكر القارئ المسلم ، حين تحدث عن « النظريات الخاطئة » التي تعلق بوضع المرأة قبل الإسلام ، يريد أن يعيدنا إلى الخلفية التاريخية التي سبق وبينها قبل ذلك ، حين كانت المرأة ممتهنة في معظم المجتمعات ، بل حين كانت منزلتها هابطة ومحتقرة في عدد غير قليل من هذه المجتمعات لدرجة أنها بيعت فيها ، كأى سلعة أخرى ، بل ربما أقل . . !!

وليس ذلك في مجتمعات أو حضارات ما قبل الإسلام فقط ، ولكنه حدث في أوروبا في عصور قريبة ، حيث بيعت امرأة بشلنين (!! ) ففي عام ١٧٩٠ م بيعت امرأة في أسواق إنجلترا بشلنين ، لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التي كانت تؤويها (٣) . . !!

ومن الطريف والمحزن في الوقت نفسه أن نذكر أن القانون الإنجليزي حتى

---

(١) سيد قطب: الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، القاهرة - بيروت، ط ١١، ١٤١٢ هـ -

١٩٩٢ م، ص ص ٦٢-٦٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ٦٣ .

(٣) محمد علي البار، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

عام ١٨٠٥م كان يبيع للرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات (!! ) فقد حدث أن باع إنجليزي زوجته عام ١٩٣١م بخمسة جنية وقال محاميه في الدفاع عنه : إن القانون الانجليزي قبل مائة عام كان يبيع للزوج أن يبيع زوجته ، وكان القانون الانجليزي عام ١٨٠١م يحدد ثمن الزوجة بستة بنسات ، بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة ، فأجابت المحكمة بأن هذا القانون قد ألغي عام ١٨٠٥م بقانون يمنع بيع الزوجات أو التنازل عنهن ، وبعد المداولة حكمت المحكمة على بائع زوجته بالسجن عشرة أشهر .

وقد حدث أن باع إيطالي زوجته لأخر . . على أقساط (!! ) فلما امتنع المشتري عن سداد الأقساط الأخيرة قتله الزوج البائع<sup>(١)</sup> ، لقد ارتدت أوروبا إلى الوراء آلاف السنين وانتكست إلى ما كان يمارسه الآشوريون والبابليون<sup>(٢)</sup> .

ونقطة هامة هنا نحب أن نختم بها هذا الجانب المتعلق بالمساواة بين الرجل والمرأة والتي قلنا فيها إنها متساويان ، وأن المرأة لا تتحمل وحدها وزر عصيان الله ، عز وجل ، في الجنة ، بالأكل من الشجرة المحرمة . ولقد أثبت العلماء ، وبينوا بالنصوص القرآنية أن المرأة لم تكن وحدها في هذه المعصية ، وإنما شاركها فيها الرجل وليس هذا فحسب ، بل إن بعضهم ، ومن خلال النص القرآني ، يؤكد أن الرجل هو المسؤول الأول : « وعصى آدم ربه فغوى » ( طه / ١٢١ ) .

مايهمنا هنا هو أن التهمة التي ألصقت بالمرأة في الحضارات القديمة ، وفي نصوص الديانات المحرفة ، والتي عوملت المرأة - ظلما - على أساسها ، هذه التهمة أزيحت عن كاهل المرأة في الإسلام ، حيث نزلت آيات القرآن الكريم لتؤكد أنها ، أي

(١) عبد الودود شلبي، مرجع سابق، ص ٦٢ .

(٢) محمد بن سالم البيجاني : أستاذ المرأة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ١٥ .

المرأة ، لم تكن هي السبب في الخروج من الجنة ، ومن ثم الهبوط إلى الأرض ، وإنما هي كانت شريكة للرجل ، وربما تابعة له ، ومن هنا فلا ينبغي تحميلها المسؤولية إلا بمقدار ما فعلته ، وليس هذا فحسب ، إنما ذلك أمر كان وانتهى حيث تاب الله عليهما ، ولا ينبغي علينا نحن البشر من أبناء آدم وحواء أن نحاسبهما على الأرض مما تاب الله عليهما منه من قديم الزمان .

إن هذا الجانب - في حقيقة الأمر - لما يرتفع بمكانة المرأة في الإسلام بشكل غير مسبوق ، ولا هو كذلك ملحق ، في الحضارات الأخرى ، فمنذ أعلن القرآن العظيم ، على لسان النبي المرسل ، صلى الله عليه وسلم ، الآيات الدالة على ذلك ، لم نقرأ في تاريخنا الإسلامي كله من عاد وكرر أن المرأة كانت هي السبب فيما جرى لأدم (الرجل) ، وبالتالي الجنس البشري كله على الأرض بسبب خطيئتها هي .

أما لماذا لم يحدث هذا عند المسلمين ، وطوال تاريخهم ، أي لأكثر من ألف وأربعمائة عام فالسبب هو الذي أوردناه من قبل ، والمتعلق بالفارق الواضح والصريح بين مجتمع المسلمين والمجتمعات الأخرى ، ونقصد به قضية التعامل مع تعاطي الخمر ، فاجتهادات البشر في الولايات المتحدة الأمريكية لم تفلح في معالجتها ، واضطرت الدولة بكل عنفوانها وجبروتها وسلطتها وإمكاناتها . اضطرت أن تخضع للسكيرين والعريبيين ولأصحاب مصانع الخمر بطول أمريكا وعرضها .

أما في مجتمع المسلمين الأول ، وعلى عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فقد كفاهم آية واحدة من القرآن الكريم ، نزل بها الروح الأمين ، على قلب سيد المرسلين ، وأذيعت على مجتمع المؤمنين ، دون تحذير ، أو ترهيب أو وعيد ، فقط : فهل أنتم منتهون . . ؟؟ وتكون الاستجابة الفورية ، بل اللحظية والعملية هي إراقة الخمر في شوارع المدينة . . و . . انتهينا يارب . . !!

نموذج تربوي رائع لمجتمع مؤمن مطيع لله ورسوله ، بشكل لم يعرف في تاريخ البشر . هذا المجتمع ذاته حينما قيل له بأن المرأة لم تكن هي التي قادت العصيان في الجنة ، وأنها كانت شريكة فقط ، وربما تابعة للرجل في هذه الخطيئة ، لم يكرر ما كان يقال في السابق عن تحميلها مسؤولية الخروج من الجنة ، ومن ثم الهبوط على الأرض ، وإنما - وهو المجتمع الذي رباه رسوله ، صلى الله عليه وسلم - تفرغ لأمر أخرى كثيرة خاصة بالمرأة ومعاملتها وتربيتها ، ولعلنا نتقل إلى معالجة بعض هذه الجوانب .

### ثانياً: تغيير مكانة المرأة في الإسلام .. بالتربية :

إن هذا العنوان الذي قد يبدو بسيطاً في نظر البعض يشتمل على ثلاثة محاور أساسية هي : التغيير ، ومكانة المرأة في الإسلام ، والتربية . أما مكانة المرأة في الإسلام فهي المحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الدراسة كلها ، ويبقى بعد ذلك محورا : التغيير ، والتربية ، وسوف نحاول تناولهما بشيء من التفصيل ، ثم نربطهما بعد ذلك - إن شاء الله - بمكانة المرأة في الإسلام \* .

#### أ - محور التربية :

منذ وجدت المجتمعات البشرية على وجه الأرض وهي تتخذ من التربية وسيلة لتنشئة أفرادها ، وللعمل على تكييفهم مع البيئات المحيطة بهم . البيئات الطبيعية ، والبيئات الاجتماعية . والتربية - بهذا المعنى - قرينة الحياة ، بل إن البعض يقول بأنها هي الحياة ذاتها .

---

(\*) حينما نتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام ، والتي تبوأها بعد أن سطعت شمسها لانقصد بذلك حقوقها التي قررتها لها الشريعة ، من حيث كونها ابنة وزوجة ، وأما فتلك الأمور تناولتها كتب كثيرة ، بعضها ذكر في هذه الدراسة ، وإنما نقصد «بالمكانة» ماوصلت إليها المرأة بالتربية في ظل الإسلام ، وكانت تربية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، في المقام الأسمى منها .

فمنذ اللحظات الأولى لميلاد الأطفال تتولى أسرهم العناية بهم ، كي يتوافقوا مع المجتمع الصغير المحيط بهم في نطاقها ، وكذا مع المجتمع الخارجي ، كي يستطيعوا التعامل مع أفرادهم وجماعاته ومؤسساته ونظمه ، لأن العيش في خضم تياراته ليس بالهين ولا بالبسيط . ولأن التربية تحتل موقعا خطيراً في حياة المجتمع - أي مجتمع - فإنها لم تترك للأسرة وحدها ، ولا للأفراد ، وإنما تدخلت فيها الجماعة ، أو المجتمع ، وألقت وراءها بثقلها .

إن ما يميز أفراد مجتمع عن أفراد مجتمع آخر هو ثقافة ذلك المجتمع ، ونوع التربية السائدة فيه . لا يميزهم غناهم أو فقرهم ، ولا تميزهم ألوان عيونهم ، أو أشكال أجسامهم طولاً أو قصرًا ، وإنما تميزهم التربية التي يتلقونها ، والتي تجعل منهم أشخاصاً ذوي هوية معينة ولون محدد . وكمثال على ما نقصده فإننا حينما نذكر المجتمع الياباني هذه الأيام فإنه لا يقفز إلى أذهاننا إلا العلم والتكنولوجيا والتقدم والاختراع والعمل الدءوب ، وكل أولئك نواتج للتربية ، ويغيب عنا - بطبيعة الحال - لون الياباني ، وباقي صفات جسمه ، بل وحتى تغيب عنا أرضه ومناخ بلده ، وأي شيء آخر .

وللمحافظة على بقاء الجماعة واستمرار وجودها فإن المجتمعات تحرص على أن تلقن الصغار من أفرادها أساسيات ثقافتها\* ، ومبادئ تربياتها ، حتى يخرجوا إلى الحياة وهم متماسكون اجتماعياً وثقافياً ، بحيث لا تسهل إذابتهم في مجتمعات أخرى ، وبحيث يقاومون ما قد يتعرضون له من ضغوط قد تقع عليهم ، سواء كانت من جانب الطبيعة وعواملها ، أو من جانب المجتمعات المحيطة بهم ، والتي قد

---

(\*) يمكن - لمن أراد - مراجعة كتاب المؤلف : الثقافة . . والغزو الثقافي لدول الخليج العربي ، العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

تطمع فيما عندهم من خيرات أو ثروات ، أو من جانب وسائل الإعلام الحديثة الموجهة نحوهم ، بقصد إذابتهم ، ومن ثم إذابة إرادتهم ، أو على الأقل التأثير فيها .  
والتربية - بناء على هذا الأساس - عملية مستمرة ومرادفة للحياة ذاتها ، فهي تبدأ مع الإنسان ، منذ ولادته ، بل وحتى قبلها ، وهي - كذلك - تتم معه طيلة أيام عمره ، ولا تنتهي أو تتوقف إلا مع انتهاء تلك الحياة . ولعل هذا المعنى هو الذي كان - ولا يزال - وراء عناية الإسلام واهتمامه بالطفولة والتنشئة الاجتماعية ، حتى قبل الزواج ، عملاً بحديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، تحيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . ولقد حرص الإسلام على العناية بالأطفال منذ ميلادهم ، بل لقد شملت عنايته مرحلة ما قبل الميلاد حين دعا إلى اختيار الزوجة الصالحة ، لتكون أما صالحة ، توفر المناخ الطيب ، والبيئة الملائمة لتربية الطفل ، وأيضاً برعايته والعناية بصحته الجسمية والنفسية .<sup>(١)</sup>

وعلى ذلك فإن التربية عبارة عن عملية تشكيل لشخصية الفرد ، ولبناء حياته داخل الإطار الذي ارتضته الجماعة لنفسها ، والذي وضعت معاييرها ، وحددت ضوابطه ، ، وهذه العملية تبدأ مع الإنسان طفلاً يتشرب القيم والاتجاهات والتصورات من والديه ، ثم ينمو الطفل ويحتك بالأقارب والجيران ، فتزيد دائرة احتكاكاته ، ثم يذهب إلى المدرسة ، إن كان هناك تعليم مدرسي ، فتتسع الدائرة أكثر وتستمر التنمية الأيديولوجية ، حيث تصقل تلك القيم والاتجاهات وتبلور .<sup>(٢)</sup>  
ويقول سويفت (Swift) إن التربية هي الطريقة التي يتمكن الفرد بواسطتها

---

(١) حسن عبدالعال : التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ١٠٥ .

(٢) عبدالغني عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ص ٢٦-٢٧ .

من أن يكتسب الكثير من القدرات البدنية والأخلاقية والاجتماعية التي تتطلبها الجماعة التي ولد بها ، والتي يجب أن يعمل فيها . ويسمى علماء الاجتماع هذه العملية بالتطبيع الاجتماعي ، أو التنشئة الاجتماعية Socialization . وترجع قيمة هذا المصطلح وأهميته إلى سبين : فهو يؤكد - في المقام الأول - على أن التربية عملية اجتماعية ، تحدث في إطار اجتماعي ، وثانياً أنها تتم بالطرق التي تتطلبها قوانين الجماعة . (١)

ومعروف أننا لانستطيع - كما يقول «جونسون Johnson» - أن نتحدث عن «الطفل الوليد» أو الرضيع ، وذلك ببساطة لأن ذلك الرضيع لا يمتلك الشخصية بالمعنى الصحيح ، إذ أنها عبارة عن نظام داخلي معقد ، وبعبارة Acomplex Innersystem يمثل العالم الخارجي بعد أن يحتك به الطفل ويتفاعل مع عوامله . (٢)

وهذا الكلام يقودنا إلى عملية «التطبيع الاجتماعي» التي حدثنا عنها «سويفت» والتي هي من أخطر المهام التي تقوم بها الجماعة تجاه أفرادها الجدد من الناشئين حتى يستطيعوا أن يتكيفوا مع أعضاء الجماعة المحيطين بهم ، وأن يتوافقوا مع ما اصطلح عليه أفراد المجتمع ، وبالتالي فإن هذه العملية - عملية التطبيع الاجتماعي - عملية تربوية بالدرجة الأولى ، يتمكن الفرد ، أو الناشئ الجديد ، من خلالها ، من القيام بالأدوار الاجتماعية الجديدة عليه ، والمطلوب منه القيام بها . إن التربية تعني ، على وجه اليقين ، بالسلوك ، وتنميته وتطويره وتغييره

---

(١) د. ف سويفت : اجتماعيات التربية ، دراسة تمهيدية تحليلية ، ترجمة محمد سمير حسنين ، مؤسسة سعد للطباعة ، طنطا ، ط٢ ، ١٩٧٧م ، ص ١٦ .

(2) Robert R.Bell (Editor) Hary M. Johnson : Socialization in the sociology of Education, Temple University, The Darsy Press Inc, Home wood II, 19662, P.86.

(بطبيعة الحال نحو الأفضل) أي أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات والمعتقدات والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة التي تجعل منهم مواطنين صالحين في مجتمعهم ، ومتكيفين مع الجماعة التي يعيشون بينها. (١)

ويركز بعض المفكرين التربويين على أن مهمة التربية هي أنها تهتم بالدرجة الأولى بتنمية الشخصية ، داخل الإطار الاجتماعي الذي توجد فيه هذه الشخصية وتتفاعل . والمفهوم الذي يأخذون به فيما يتعلق بالشخصية هو أنها « كل منظم شامل يتضمن الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية ، كما يتضمن الخلق والمزاج اللذين يعتبران أجزاء من شخصية الفرد. (٢)

وفي بعض كتابات هتشنز Hutchins نجده يركز على أن التربية تهدف ضمن ما تهدف اليه - إلى تنمية قوى الإنسان العقلية Inllecual والأخلاقية Moral ، وكذا القوى الروحية Spiritual Powers وبما أن جهة واحدة من المجتمع ، أو مؤسسة واحدة ، كالمدرسة مثلا ، لا تستطيع أن تنمي كل تلك القوى ، فإن العديد من المؤسسات كالمدرسة والمنزل والمؤسسات الدينية يجب أن تعمل جميعا معا ، في تناسق وتعاون كي تحقق هذه الجوانب في الإنسان ، وكي تعمل على تنميتها. (٣)

والتربية في النهاية عبارة عن عملية مجتمعية خاصة جداً بالمجتمع الذي تعمل فيه وله ، بل إنها لمن أخص خصوصيات ذلك المجتمع ، أي أنها تنبع ، أو ينبغي أن

(١) محمد لبيب النجيجي : الأسس الإجتماعية للتربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٧٨م ،

ص ٩ .

(٢) أ.ك. أوتواوي : التربية والمجتمع ، ترجمة وهيب سمعان وآخرين ، مكتبة الأنجلو المصرية ،

القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٥ .

(٣) المرجع السابق .

تنبع ، من ظروف ذلك المجتمع ، ومن أحواله التي تحيط به ، والتي تلف أفرادها ، سواء كانت سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية . . الخ فهي - إذن - عملية مجتمعية (Societal) بالدرجة الأولى ، وبالتالي لا يصلح فيها النقل أو الاستيراد من مجتمعات أخرى ، بل هو على وجه اليقين لا يجوز. (١)

#### ب - محور التغير :

يعتبر التغير سنة من سنن الله الكونية ، كما أنه حقيقة أزلية من حقائق هذا الكون الذي نعيش فيه ، والتي يتقبلها الناس في كل أنحاء العالم ، تقبلهم للحياة ذاتها ، ولما يقع لهم فيها . ومنذ خلق الله ، جلت قدرته ، هذا الكون وهو في حركة دائبة لا تهدأ ولا تنفتر ، ولنا في الظواهر الطبيعية خير دليل على ذلك .

إن نوعية الحياة على ظهر الأرض تتغير ، فحيوانات اليوم التي نعرفها والتي نستأنسها غير حيوانات الأمس البعيد ، تلك التي لانعرف منها إلا صورها في المتاحف كالديناصورات والماموث . . وغيرها .

ومناخ الكرة الأرضية الذي نعيشه اليوم ، ونعرف قوانينه ، يختلف كلية عن أنواع المناخات التي سادت قبل الآن ، بل قبل ملايين السنين ، حيث كانت أجزاء كبرى من منطقتنا العربية الصحراوية الآن - على سبيل المثال - جزءا من قاع البحر فترة ، وغابات كثيفة فترة أخرى ، هكذا يقول لنا علماء الجغرافيا التاريخية وهم يفسرون لنا أسباب وجود البترول في شبه جزيرة العرب ، والإرسابات البحرية في مناطق تبعد مئات الكيلومترات عن شاطئ البحر . . مثل صعيد مصر . . !!

وحتى في باطن الأرض ، نجد أن الحركة لا تهدأ ولا تتوقف ، وما نشعر به على ظاهرها ، مما يتم في باطنها ، يبين لنا ، إلى حد ما ، بعض ما يجري في ذلك الباطن

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : الأصول الإسلامية للتربية ، (قيد الإنجاز) .

من حركات وتغيرات لانرى منها إلا بعض مظاهرها ، حين نفاجا بشوران بركاني عنيف ، أو هزات زلزالية مدمرة . (١)

وإذا كان هذا هو حال الجوامد التي نتصورها هادئة ، بينما هي غير ذلك تماما ، فإن حياة البشر على سطح الأرض لم تعرف الثبات أو التوقف على حالة واحدة ، منذ خلق الله - جلت قدرته - آدم عليه السلام ، وحمله الأمانة . . هو ومن أتى بعده من ذريته ، وسوف تظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، يوم تقوم الساعة بأمره تعالى .

ومنذ وجدت المجتمعات البشرية على سطح الأرض ، وهي في حركة دائبة دائمة لا تهدأ ولا تكل ، فتارة يكون التغير الذي يقع بينها نتيجة لعوامل طبيعية خارجة عن إرادتها ، كأن يتغير مناخ المنطقة التي تعيش فيها الجماعة ، فتضطر أن تنتقل وترحل إلى منطقة أخرى ، طلبا لمناخ أكثر ملاءمة ، وبيئة أفضل مناسبة .

أو قد يجف مصدر المياه الذي تعتمد عليه الجماعة ، فيتغير نمط حياة أفرادها ، مما قد يضطرهم إلى تعديل أوجه نشاطهم الاقتصادي ، ويتبع ذلك تعديل وتغيير في نظمهم الإجتماعية والاقتصادية .

وقد يكون التغير ناتجا عن نشاط الإنسان ذاته وحركته التي لا تتوقف ، فلقد غيرت الكشوف الجغرافية - على سبيل المثال - حياة الشعوب في غرب أوروبا ، حيث فاضت عليهم وعلى دولهم الخيرات العميمة التي جلبت إليهم من البلاد التي اكتشفوها ، فزادوا غنى وثناء ، وتغيرت صور الحياة في مجتمعاتهم تغيرا جذريا . . نحو الأمام ونحو الأفضل .

وفي الوقت ذاته فإن الشعوب صاحبة الأراضي المكتشفة ، أو المنهوبة بمعنى

---

(١) محمد عبد العليم مربي : التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية ، دار الإبداع الثقافي ، الرياض ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ، ص ٥١ .

أصح ، في كل من آسيا وإفريقيا والأمريكيتين ، أصابها تغير من نوع آخر، حيث سلبت حرياتها ، ونهبت أراضيها ومصادر ثروتها ، بل وتحول أفرادها إلى عبيد ، في أوطانهم ، لا وظيفة لهم ولا عمل إلا أن يسدوا حاجة المستعمرين الجدد إلى الشراء وإلى الاستهلاك ، بل إنه قد نقل منهم ملايين رغم إرادتهم ، من أوطانهم في إفريقيا، كي يخدموا المستعمرين البيض في مزارع أمريكا الشمالية ، خاصة في الجنوب . (١)

وإذا ركزنا حديثنا على منطقتنا ، فإن رسالة النبي الأمين محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم ، قد جاءت لتغيير حياة الناس بشكل سريع لم تعرفه المجتمعات البشرية من قبل ، فلقد انتقل المجتمع الجاهلي من عادات وتقاليد وقيم ومعايير لا أساس لها إلا الكفر والشرك والإلحاد ، إلى عادات وقيم ومعايير أساسها وحدانية الله ، سبحانه وتعالى ، ومصدرها سنة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والتي رُبي على أساسها مجتمع طاهر نقي ، لم يسبق للبشرية أن عرفت له مثيلاً .

مجتمع بشري جديد تماماً ، يتعامل أفراده على أساس جديد ، أو أسس جديدة تماماً ، تختلف عن كل الأسس التي سبقته ، ولم يحدث عبر سنى التاريخ البشرى أن لحقه مجتمع آخر ، في شرق أو في غرب ، في قيمه ومثله ومعاييره .

مجتمع يجب الفرد فيه لأخيه مايجب لنفسه ، بل ويؤثره عليها . مجتمع يتأخى فيه المسلمون ، من مهاجرين وأنصار ، حتى لينزل الرجل منهم لأخيه عن أخص خصوصياته . . !!

مجتمع يحرص كل فرد فيه على تنفيذ تعاليم المولى ، عز وجل ، بحذافيرها ، كما يحرصون على حب الرسول لهم . . أكثر من أنفسهم ، ولا يبيت فرد منهم وفي

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

نفسه أي شيء من أخيه ، إلا أن يكون خيرا . .

مجتمع تقي . . نقي . . طاهر ، يخطيء الرجال فيه ، أو بعض الرجال ،  
فيترفون بأخطائهم أو خطاياهم للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، فيطلب من  
أصحابه مقاطعتهم فيطيعونه ، وتضيق الأرض على المخطئين بما رحبت . . بل  
تضيق عليهم أنفسهم ، من شدة المقاطعة ، وعذاب العزلة الاجتماعية ، ثم يعفو  
عنهم القوى القاهر والتواب الغفور من فوق سبع سموات . . ويتوب ، فيجري  
إليهم إخوانهم مبشرين . . وهم يبكون فرحا .

مجتمع تقي . . نقي . . طاهر . . مطهر . . تخطيء فيه امرأة ، فتذهب إلى  
سيد الخلق أجمعين تعترف بذنبها . . فيراجعها - رسول الرحمة - ﷺ ، عساها لم  
تمض في الشوط إلى نهايته ، فتصر على الصدق . . والصدق كاملا ، وهي تعرف  
هول العقوبة ، وفداحة التنفيذ . .

ويراجعها النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ثانية . . وثالثة . . عساها تتزحزح  
لكن الإيمان ذا الجذور العميقة والقوية يحول بينها وبين الكذب . . أخطأت فلتكفر  
عن خطئها . ولو بحياتها . ويتم التنفيذ بأيدي المؤمنين ، وطلبت حين احتر عليها  
قذف الحجر أن يعيدها للرسول الأمين ، فلا يستجيبون وتذهب إلى ربها . . طاهرة  
مطهرة .

ويعود الصحابة الذين شهدوا عملية إقامة الحد عليها ، ويقص بعضهم على  
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خبرها حين طلبت إعادتها للمصطفى الكريم ،  
فيقول لهم ما معناه «ليتهم عادوا بها ، ثم يخبرهم بأنها تابت توبة وسعت أهل  
الأرض . . !!

يا الله . . أية تربية هذه . . ؟ وأي إيمان أديا إلى انصهار الفرد العربي في بوتقة

هذا الإسلام العظيم . . ؟ وأي تغيير هذا الذي أصاب ذلك الإنسان . . ؟ تغيير جعله ينقلب إلى بشر من نوع جديد في سنوات قلائل ، ويأتيه الشاء عليه من رب العباد ، من فوق سبع سموات : «كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر» (آل عمران/ ١١٠) ، وصدق الله العظيم ، أصدق القائلين .

وكان حقا على التاريخ أن يتوقف ليشهد بزوغ حضارة ذات قيم ومعايير وتقاليد أساسها تعاليم القرآن ، وسنة الرسول ، عليه افضل الصلاة وأتم التسليم ، وكان حتما أن يتغير العالم . . من حولهم . . بعد أن تغيروا هم . . من داخلهم . وتحولت شبه الجزيرة العربية إلى بيئة حية . . خصبة . . نشيطة . . مصدرة ، تصدر الخير لمن حولها . . في كل اتجاه ، وكان مركز الإشعاع الحضاري الجديد في المدينة المنورة ، حيث كان خيط النور الإلهي لا يزال مستمرا في الهبوط علي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحيث كانت صناعة الرجال تتم في كل لحظة .

ولقد كان هذا التغيير إيذانا بدخول العرب ، ومن أسلم بعدهم من الشعوب الأخرى ، إلى حلبة صناعة التاريخ البشري ، صناعة الحضارة الجديدة ، والتي صار العرب روادا لأفاتها ، بفضل ما نفخ فيهم هذا الدين العظيم من روح دفعتهم للعلم . . والعمل . . وبذل الجهد ، حتى دانت لهم امبراطوريات كبرى كانت عزيزة على مر الزمان .

وشهد التاريخ في منطقة البحر المتوسط ، قلب العالم الذي كان معروف آنذاك ، نشاطا علميا عمليا مستندا إلى تعاليم القرآن الكريم ، وتربية وتوجيهات النبي الأمين ، صلى الله عليه وسلم ، نشاط لم يسبق أن شهده التاريخ باعتراف علماء الغرب أنفسهم ، من حيث قوته وسرعته . . وعظمة إنجازاته . . وروعة

إبداعاته .

وفي هذه الفترة من التاريخ والتي كان نجم العرب والمسلمين جميعا من حولهم يسطع تألقا ، بفعل الدين الجديد ، في أنفسهم وشخصياتهم ، ومجتمعاتهم ، في هذه الفترة ، بالتحديد ، كانت أوروبا تعيش فترة تخلف حضاري خطير بل مظلم ، حتى أطلقوا هم أنفسهم علي حقبة منها شديدة التدهور مرحلة «العصور المظلمة . The Dark Ages

ولقد كانت الكنيسة ورعاتها من القساوسة خلف هذا التخلف إلى حد بعيد حيث تدخلوا في حرية الإنسان الأوروبي ، وفي فكره ، في الوقت الذي كان فيه العقل المسلم يخلق حرا طليقا في جميع آفاق العلم والفكر الرحبة يبتدع . . ويبتكر . . يضيف . . ويكتشف . . يبتدع . . ويطبق ، في كل مجال ابتداء من الطب . . إلى الفلك ، ومن الكيمياء إلى الرياضيات ، ومن الهندسة إلى الجغرافيا والاجتماع والترية . . الخ .

في هذا الوقت كانت الكنيسة تطارد العلماء والمفكرين في أوروبا وتحجر على آرائهم وأفكارهم ، بل وتقيم لهم المحاكمات ، وتدين بعضهم فتضعه خلف القضبان الحديدية سجيناً ، وتقسو على البعض الآخر ، وتحكم عليه بالموت شنقا حيناً . ومحروقا أحيانا أخرى . . !!

وحيث أن دوام الحال من المحال ، كما هو معروف ومسلّم به ، فقد جاءت فترة من التغير جديدة ، حيث ابتعد المسلمون عن المنبع الصافي الأصيل الذي كان سبب تقدمهم وتحضرهم ، ونقصد به الدين الإسلامي العظيم ، وذلك حين شغلته توافه الامور ، وبعد أن طلقوا العلم التجريبي ، وحين انحلت عزائمهم ، وانفكت عرى وحدتهم ، وحين صرخ فيهم صارخ بفصل الدين عن الحياة ،

فأخذوا إلى الأرض ، وخسروا الاثني عشر : الدين ، والدنيا . . جزاء وفاقا .

وكان التخلف هو النتيجة الطبيعية والمنطقية لكل ذلك ، فأخذ الظلم يسود حياتهم ، ويلفها لفا ، بفعل عوامل كثيرة ، بعضها داخلي فيما بينهم ، وبعضها الآخر خارجي من فعل أمم أخرى أضمرت لهم العداوة والبغضاء فتناوشتهم من كل مكان ، وتداعت عليهم كما تتداعى الأكلة على قصعتها -تماما- كما جاء في حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فمنذ انقضت الحروب الصليبية بين المسلمين ودول أوروبا المسيحية ، وعلى الرغم من الهزائم التي منى بها الأوروبيون ، إلا أنهم لم ييأسوا ، ولم يكلوا أو يهدأوا ، وظلوا يكيلون للمسلمين الضربات تلو الضربات ، حتى استطاعوا -أخيراً- أن يلتفوا من حولهم ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين في أعقاب ما سمي بحركة الكشوف الجغرافية ، فجاؤوهم من أسفل منهم ، من الجنوب ، من الخليج العربي والمحيط الهندي ، ومن مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، كما جاؤوهم بعد ذلك من البحر المتوسط في الشمال . من فوقهم . . !!

وسقطت الدول الإسلامية ، واحدة بعد الأخرى ، أمام القوى الأوروبية العاتية الجديدة التي استفادت كثيرا من سبات العرب والمسلمين جميعاً ودعمت نفسها بالعلم وتطبيقاته ، بعد أن ترجمت أعمال المسلمين العلمية . . في كل مجال .

وظهرت على خريطة العالم السياسة الجديدة إمبراطوريات استعمارية حديثة حلت محل الإمبراطورية الفارسية وقريبتها الرومانية ، وبدأ العالم يعرف ألوانا غريبة من الاستعمار والاضطهاد والاستنزاف ، وقد حمل هذه الألوان إلى بلاد العالم الأوروبيون وكان معظمهم من الإنجليز والفرنسيين والألمان والإسبان والبرتغال والإيطاليين . . وحتى الهولنديين والبلجيكين . . !!

هذا ويمكن القول بأن القرن التاسع عشر - بصفة عامة - كان هو الفترة الحرجة بالنسبة للدول الإسلامية عامة ، والدول العربية بصفة خاصة ، ففي بدايته تماما ، بل وقبل تلك البدايه بعامين ، اندفعت الحملة الفرنسية بقيادة «بوناپرت» لتعبر البحر المتوسط ، متجهة جنوبا لتدنس أرض مصر الإسلامية ، ومفتحة عصر الحروب الصليبية الجديدة ، في قلب العالم الإسلامي ، عام ١٧٩٨ م .

ولقد قاوم المسلمون في مصر مقاومة عنيفة خاصة حينما تأكّدوا أن الغازي الأوروبي قد جاء لينال من دينهم ، بعد أن كان قد خدع البعض وأشاع أنه دخل الإسلام (!!) وراح آلاف الشهداء ، من الرجال والنساء والأطفال ، ولكن الأوروبيين (الفرنسيين) تفوقوا عليهم بفضل العلم . . والسلاح . . واللذين افتقدهما المسلمون من وقت طويل . (١)

وخرج الفرنسيون من مصر ، بعد سنوات معدودة ، وحاول البريطانيون أن يدخلوها ، ليطردوا فوراً من رشيد عام ١٨٠٧ م ثم ليعودوا إليها - إلى مصر - من جديد عام ١٨٨٢ م ، كي يستقروا فيها لأكثر من سبعين عاما .

وفي أقصى الغرب من العالم العربي ، اندفع الفرنسيون ليحتلوا الجزائر المسلمة عام ١٨٣٠ م ، مدعين بأن الخطأ هو خطأ البحر المتوسط الذي فصل التراب الجزائري عن التراب الفرنسي . . (!!) . . حتى حقائق الجغرافيا التي لا تتزحزح . . أرادوا قلبها والعبث بها . . !!

ومن بعد ذلك احتلوا المغرب وتونس ، ولحقت بهم إيطاليا الاستعمارية في محاولة لإذلال المسلمين المجاهدين في ليبيا . وحقا لقد انفتحت شهية الأوروبيين للاستعمار الشره ، ودبت النار في شرارة الصليبية التي لم تحمد ، منذ هزيمتهم أمام

---

(١) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م.

المسلمين - منذ قرون - حول بيت المقدس ، على يد صلاح الدين والمسلمين  
المجاهدين الموحدين ، فجاءوا ينتقمون . . هنا . . في عالمنا العربي . . وكذا في آسيا  
وأفريقيا . . بل وحتى في المحيط الهادي البعيد ، حتى وصلوا إلى جزر الملايو  
وإندونيسيا . (١)

ولقد كان نشوب حريين عالميتين كبيرتين بين الدول الاستعمارية بعضها  
البعض بعد أن انضمت إليها روسيا وأمريكا واليابان ، هو قمة الصراع بين  
المغتصبين ، ودفعت الدول الصغرى - المستعمرة - وكانت الدول الإسلامية من  
بينها ، الثمن في الحرب . كما دفعته في السلم ، من دم أبنائها تارة ، ومن ناتج  
عملها واقتصادياتها تارة أخرى ، بل ومن ضياع سنوات غاليات من مستقبلها  
ومستقبل أبنائها .

وعقب الحرب العالمية الثانية نال كثير من الشعوب الإسلامية استقلاله ، وبدأ  
يعيد ترتيب بيته من الداخل ، وينظر إلى مستقبله ، كي يعوض فترات التخلف التي  
سادته زمناً ، وظهر عنصر جديد في الأمر ، فلقد أراد الله سبحانه وتعالى بالمسلمين  
في المنطقة العربية خيراً ، فتفجر البترول من باطن أراضيها ، وخاصة دول الخليج  
العربية ، وكان ذلك إيذاناً بمرحلة جديدة من التغيير .

لقد استفاد أصحاب البترول من عائداته في محاولات جادة لإعادة بناء أنفسهم  
وأوطانهم . ولقد كانت العائدات النفطية من الكثرة والوفرة ، وخاصة بعد حرب  
رمضان ١٣٩٣ هـ - أكتوبر ١٩٧٣ م المجيدة ، بحيث اجتذبت إلى مياهم عشرات  
الشركات الضخمة . . بل مئاتها ، ومن ورائها دولها التي جاءت تدعمها وتطلب

---

(١) محمد عبد العليم مرسى: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود  
الإسلامية، الرياض، ١٤٠٩ هـ .

لنفسها بعض الغنم .

ونظر العرب حولهم ، وخاصة عرب الخليج ، ورأوا أن الدول المتقدمة في الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وفرنسا وألمانيا ، . وكذا اليابان في أقصى الشرق ، رأوها وهي تستفيد من بترولهم في دعم صناعاتها وبناء الرفاهية لمواطنيها ، فأقبلت على استيراد كل ما يمكنها من هذه الدول لتنفيذ خطط جديدة للتنمية الشاملة ، كي تعوض ما فاتها في وقت قصير جداً ، أخذاً في الحسبان أعمار الشعوب والدول .

ولقد عمدت حكومات الدول الخليجية البترولية إلى بناء البنى الأساسية التي تخدم اقتصادها وتدفع بخطط تنميتها إلى الأمام ، فأقامت المصانع ، وشيدت المدارس والجامعات ، ورصفت الطرقات ، وشيدت المطارات والموانئ البحرية ، وأنشأت شبكات هائلة للبرق والبريد والهاتف والكهرباء والمياه .

وكانت طبيعياً أن تتغير منطقة الخليج من النقيض إلى النقيض ، حيث انتقل مئات الآلاف من البادية ومن حياتها المتنقلة ، إلى المدن حيث الاستقرار والعمل المنتظم ، وبالتالي تغيرت أعمالهم ، فبعد أن كان احتراف الرعي أو الزراعة البسيطة أو الصيد البدائي هو الأساس عندهم ، ظهرت في حياتهم أعمال أخرى جد مختلفة ، كالتجارة والصناعة ، والعمل في دواوين الحكومة المختلفة ، كما تطورت الزراعة بالعلم والميكنة .

وظهرت وسائل للمواصلات جد مختلفة عما تعودته أهل المنطقة في السابق ، وأصبح استعمال الطائرة للركوب أمراً عادياً بعد أن أصبح عنصر الوقت حيوياً بالنسبة لسكان المنطقة ، ناهيك عن آلاف الآلاف من السيارات . من كل صنف ولون .

هذا وعلى الرغم من جهود الحكومات الخليجية في مجال التعليم ، والتي بسببها انتشرت معاهد التعليم ومؤسساته في جميع المدن . . كبرها والصغير ، بل ووصلت الخدمات التعليمية إلى البدو المتنقلين ، وإلى المزارعين في قراهم ، نقول وعلى الرغم من كل ذلك ، إلا أن هناك تغيراً جديداً في هذا المجال ، هو خروج الألف من أبناء الخليج للدراسة في الخارج ، في بعض البلاد العربية ، وخاصة مصر ، وإن كانت الموجة الجديدة التي صاحبت الطفرة البترولية ، اتجهت إلى الغرب ، وبالتحديد إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

وتأثرت حياة الأسرة ونمطها كثيراً بهذا التغير الكبير الذي عم كل ركن من أركان الحياة في المنطقة ، فتأثرت حياة الأفراد في مآكل وفي مشرب ، وبدأت بعض القيم الطيبة التي كانت تربط السكان ببعضهم تتأثر . بسبب المادة ، وكان هذا وضعاً غريباً . . وجديداً على المنطقة وأهلها .

وعلى الرغم من التقدم الذي شهدته المنطقة ، والتطور الهائل الذي وجد طريقه إلى مظاهر الحياة فيها ، ولا يزال ، إلا أن هذا التغير قد جاء معه ببعض المشكلات ، وهذا أمر عادي وطبيعي ، خاصة وأنه كان على سكان المنطقة أن يعتمدوا إلى حد بعيد على قوى عاملة أجنبية ، جاءت إلى المنطقة بعاداتها وقيمها ومعاييرها التي تختلف جذرياً عن كل ما فيها ، وخاصة تلك العمالة التي جاءت من جنوب شرقي آسيا ، وبالتحديد تلك القادمة من بلاد لا علاقة لها بالإسلام .

كذلك فإن الاعتماد على التكنولوجيا في حد ذاته يحضر معه أنواعاً جديدة من القيم ومن المعاملات التي تصحب - عادة - الجديد من المخترعات ، وكان على العرب أن يواجهوا التغير . . وأن يتعاملوا مع مشكلاته . وما كان للتربية أن تتخلف عن القيام بدورها في هذا المجال ، لأنها هي الملاذ وهي الوسيلة لمواجهة تلك

الذي نريد قوله والتأكيد عليه هنا هو أنه على الرغم من أن البترول وظهوره بالكميات التي ظهر بها ، وارتفاع أسعاره بالشكل الذي جرى ، في الفترة التي سبقت الإشارة إليها ، وهي التي أعقبت حرب رمضان / أكتوبر ، وعلى الرغم من أن كل ذلك كان فاتحة خير للإقليم وأهله إلا أنه قد ظهرت هناك بعض السلبيات والأخطار التي تعيها الحكومات ، ويعيها المفكرون من أبناء المنطقة ، وذلك في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتي يمكن أن يذكر بعضها كمايلي :-

١- إن البترول سلعة مستهلكة ، سوف تنضب بعد حين ، طال ذلك الحين أم قصر ، وأن المنطق والعقل يقولان ببناء مشروعات ضخمة وأساسية ، تكون ركائز للمستقبل ، حتى لا يعود الناس كما كانوا ، وهذا بالفعل ما وضعت بعض دول المنطقة أقدامها عليه بخطى راسخة ، وخاصة في المملكة العربية السعودية ، حين عازمت على تنويع مصادر الدخل فيها ، وقد نجحت بالتحديد في مجال الزراعة . . وهو المجال الأصعب ولكنه الأفضل والأبقى . .

٢- إن ظهور البترول بهذه الكميات الضخمة قد اجتذب إلى منطقة الخليج العربي ، دول العالم الكبيرة ، وإن خدمات هذه الدول ليست حياً في العرب بمقدار ما هي طمع فيما لديهم من ثروات .

٣- إن استنفاد ثروات العرب واستنفاد طاقاتهم التي قد تدفعهم خطوات إلى الأمام ، شيء قد يخطط له عن قصد . . وعلى البعد ، ويجري تنفيذه على أرضهم .

٤- إن اعتماد أبناء هذه الدول على العمالة المستوردة أمر يجب أن يكون في عداد «المؤقت» لا «الدائم» وهذا المطلب يلقي عبئاً كبيراً على التربية ، وعلى المخططين لها ، خاصة في المجالات الصناعية والفنية حيث تفشت هذه العمالة ووصلت حد

الخطر .

٥- إن استيراد تلك الأيدي العاملة قد ترك - في معظم الأحوال - دون تخطيط أو ترتيب ، فجيء بعشرات الآلاف (أحياناً مئاتها) من بلاد تبتعد كل البعد عن معتقدات أهل الإقليم بكل ما يمثله ذلك من أخطار على المجتمع وقيمه .

٦- إن خروج عشرات الآلاف من أبناء المنطقة سنوياً إلى دول الغرب من أوروبا وأمريكا ، وسياحتهم فيها ، يتم في بعضه بأساليب غير متحضرة ، تسيء إلى المنطقة وأهلها ، وتجعل الحكم عليها صعباً ، حتى من جانب الذين يبتزون أموالهم هناك !! .

٧- على الرغم من وفرة الأموال في أيدي الأفراد ، إلا أنهم تركوا العبء كله على كاهل حكوماتهم ، لأنها غنية أيضاً ، ولكن ذلك عكس عدم المشاركة ، وأحياناً عدم الاهتمام بما تقوم به تلك الحكومات في مجالات الصحة والتعليم وغيرها ، وذلك بعكس دافع الضرائب في المجتمعات الغربية الذي يشعر أنه شريك كامل . . له حقوق . . وعليه واجبات .

٨- إن وفرة الأموال في أيدي بعض الأفراد جعلت أبناءهم لا يشعرون بأهمية تلك الأموال ، ولا بكيفية الحصول عليها ، ومن هنا فلم يتعودوا احترام العمل كقيمة في ذاته ، كما يحدث في المجتمع الغربي الأوروبي أو الأمريكي .

٩- إن كثيراً من القيم الطيبة التي كانت سائدة في المنطقة بدأت تنداعى أمام المخترعات الحديثة وتطبيقاته<sup>(١)</sup> .

---

(١) محمد عبدالعليم مرسي : دور التعليم العالي في تنمية دول الخليج العربي ، مجلة مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الأول ، الرياض ، كتاب : بلادنا والزيت لنخبة من الكتاب السعوديين ، جمع مادته وقدمه عبدالله بن محمد بن خميس ، كتاب الشهر ، النادي الأدبي بالرياض ، ١٣٩٩-١٩٧٩ م .

## ماهية التغيير :

يتضح من المدلول اللفظي للتغيير أنه يشير إلى التحول أو التبدل أو الانتقال من حالة إلى حالة مختلفة ، فإذا أضفنا لفظ «اجتماعي» إلى التغيير أصبحت الإشارة هنا إلى تحولات أو ذبذبات متصلة بالمجتمع وعناصره ، نظمه ، عملياته ، والعلاقات بين عناصره<sup>(١)</sup> .

والتغيير سنة من سنن الله ، سبحانه وتعالى ، وهو نتيجة لتفاعل الأفراد مع بعضهم ، ولتفاعل الجماعات مع بعضها . . داخل المجتمع الواحد ، كما أنه يتم نتيجة لتفاعل المجتمعات أو الشعوب مع بعضها البعض .

هذا وهناك بعض المحاولات العلمية ، خاصة من جانب علماء الاجتماع ، لتعريف التغيير . . من بينها «أنه يشير إلى أن أعداداً كبيرة من الناس يمارسون أعمالاً ويقومون بأنشطة اليوم ، تختلف عن تلك التي مارسوها هم وأباؤهم من قبل»<sup>(٢)</sup> كذلك فإنه «هو التغيير الذي يشير إلى كل ما يطرأ ، في سياق الزمن ، على الأدوار والمؤسسات والأنظمة التي تحوي البناء الاجتماعي ، من حيث النشأة والنمو والاندثار»<sup>(٣)</sup> .

ونلاحظ هنا أن التعريف الأول قد أشار إلى أن التغيير قد أصاب «الأعمال والأنشطة» التي كان الناس يقومون بها ، فأصبحوا يمارسون أعمالاً وأنشطة أخرى مختلفة . أما التعريف الثاني فإنه يتحدث عن التغيير وصلته بالأدوار الاجتماعية للأفراد ، كما تعرض للتغيرات التي تحدث أيضاً للمؤسسات والأنظمة الموجودة في المجتمع ، وذلك من حيث حالاتها التي تمر بها منذ نشأتها ، وفترات ازدهارها

(١) الفاروق زكي يونس : الخدمة الاجتماعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، ص ٣٤٢  
(2) Francis Merrill: Society & Culture, Prentice Hall, New Jersey, 1961,



٣- التغيير الاجتماعي : Social Change ، وهو الذي يتعلق ، بعد كل ما سبق ، بالعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع ، وبالتوازن أو التعادل Balance or equilibrium الذي يضبط هذه العلاقات . (١)

والواقع أن هذا التحليل المفصل والمحدد للتغيير له ميزة هامة ، وهي أنه يحدد على وجه اليقين أي نوع من التغيير نتحدث عنه أو نبحث فيه ، ومن هنا فهو يزيل الالتباس الذي يقع فيه بعضنا كثيراً عند معالجته لقضية التغيير ، كما أنه يجعل الحديث أكثر علمية .

ولكن المشكلة البسيطة التي يجب أن ينتبه إليها الباحث في هذا المجال ، هي أنه عند الحديث عن التوازن في المجتمع ، وعلاقاته الاجتماعية ، أو عدم التوازن Disequilibrium ، في تلك العلاقات ، ينبغي ألا يغيب عن باله أنه لا بد وأن يتعرض - بصورة أو بأخرى - للتغيرات والتقلبات Vicissitudes التي تحدث في المجالين الحضاري والثقافي . إذ أن التغيير الاجتماعي لا يمكن عزله أو فصله عنهما ، وبالتالي لا يمكن الحديث عنه بمعزل عن تأثيرهما .

إن نسيج العلاقات الاجتماعية التي تكون المجتمع ، بالصورة التي هو عليها ، نسيج معقد ومتشابك ومتأثر بكل اختراع فني ، أو حتى بكل تغيير في الملبس ، أو ما يطلق عليه «الموضة» ، كما أنه متأثر أيضاً بكل جديد في عالم الفن ، أو بكل تقدم في ميدان من ميادين الإنتاج ، كما أنه ينبغي أن يكون محكوماً بالضبط الاجتماعي . إن الحياة واحدة ، وعلاقاتها نسيج متصل متكامل غير متقطع الأجزاء ومن هنا فان كل تغيير فيها هو سبب ونتيجة في نفس الوقت .

---

(1) Ivory Movrish: The Sociology of Education, George Allen & Unwin LTD London 1972, q. 64.

وإذا اقتنعنا بأن كل جديد في مجال الاختراعات التكنولوجية يؤثر على حياة الناس ، بصورة أو بأخرى ، سلباً وإيجاباً ، إذا اقتنعنا بهذا ، أدركنا إلى أي حد تجري سرعة التغير في مجتمعات اليوم بسبب مئات الاختراعات التي تظهر في حياة الناس اليوم . . في كل مجال من مجالات الحياة .

ويكفي في هذا المجال أن نتذكر الكم الهائل من الأجهزة الحديثة في مجال الألكترونيات أو الحاسبات الآلية (الكمبيوتر) (\*) بأجسامها المختلفة والمتعاقبة ، وكذا في مجال التليفزيون وأجهزة الفيديو المستحدثة والمتجددة ، والأقمار الصناعية الدوارة في الفضاء .

بل إن ميداناً من الميادين القديمة جداً في حياة الإنسان ، هو ميدان الزراعة ، قد أصابه التغير بشكل غير عادي ، لدرجة أنه أصبح أقرب إلى الصناعة بتعقيدها وفنونها وتطورها منه إلى الزراعة الرتيبة التي كانت معروفة لنا جميعاً . ولنا أن نقرأ حول ما يتم في هذا المجال في البلاد المتقدمة زراعياً ، خاصة في كندا وأستراليا والولايات المتحدة الأمريكية ، من أساليب جديدة في عمليات الزراعة ، ومن أساسيات إدارة المزارع الضخمة التي تصل مساحة بعضها أحياناً إلى أكثر من مليون فدان . . !!

كذلك نقرأ عن تغيير وتحسين وتطوير الآلات العملاقة المستخدمة في الزراعة ، وانتقل لتتعلم عن الجديد في أنواع البذور المستنبته ، والمخصبات الزراعية التي لا يتوقف البحث فيها ، إلى سلالات النباتات المختلفة والمتنوعة ، والتي تلعب فيها الهندسة الوراثية أدواراً أقرب إلى الخيال اليوم .

وباختصار فإن هذا الميدان قد مسته يد التغير والتطور . . أو بمعنى

---

(\*) في مطلع العام ١٩٨٦م أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية أن لديها جهاز كمبيوتر يقوم بإتتين وخمسين مليوناً من العمليات الحسابية في الثانية الواحدة (١١١) ، وأنه يستخدم في مجال الفضاء الخارجي .

أصح . . يد التغيير والتطوير ، في كل مجال من مجالاته . . زراعة وحصاداً . . وريا  
وعناية . . ونقلًا وتسويقًا . . الخ بالإضافة إلى تجارب لازالت قيد التنفيذ  
كمحاولات الزراعة تحت مياه البحر . . في اليابان . . (!!) . . إلى زراعات ناجحة  
للشعير ولنباتات تشبه الطماطم . . في الصحراوات القاحلة في أمريكا (!)

إن كل هذا قد غير كثيرا - بطبيعة الحال - في حياة الناس ، وخاصة المزارعين  
في تلك المجتمعات ، بحيث أصبحت صورة المزارع القديم . . الذي كان يبذر  
الحب ويجلس هادئاً . . ساكناً . . كسولا . . شهورا عدة ، . في انتظار ظهور  
المحصول الجديد ، هذه الصورة قد ولت وأصبحت في ذمة التاريخ ، بعد أن أصبح  
هذا الفلاح أكثر اعتمادا على العلم ، وعلى الآلة الحديثة . . حتى الكمبيوتر أدخله  
في عمليات تخزين الغلال ، كما أصبح لديه الكثير من الوقت . . وقت الفراغ الذي  
عليه أن يفكر في كيفية قضائه ، وكذا أصبح لديه الكثير من الأموال الفائضة التي  
ينبغي استثمارها .

وينبغي علينا هنا في منطقة الخليج العربي . . خاصة وفي المنطقة العربية بصفة  
عامة ، أن نتنبه إلى ما يجري على أرضنا . . ومن حولنا . . من تغير ، خاصة وأن هذا  
التغير يجري بمعدلات سريعة ، في جميع الاتجاهات ، وفي جميع نواحي حياتنا  
الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بل والنفسية . . الخ .

ومعنى التنبه والوعي هنا هو أن نكون على حذر من هذه التغيرات ، وأن  
ندرس أسبابها وعواملها . . وكذا طرق سيرها . . وتأثيراتها . . ونتائجها ، وذلك  
حتى لا نفاجأ بنتائج غير متوقعة قد تأخذنا على غرة .

إن التغيير أمر حتمي ، كما سبق القول في الكتابات السالفة وفي غيرها ،  
لدرجة أنه ينسب إلى هيراقليطس Heraclitus الذي عاش خمسمائة عام قبل ميلاد

السيد المسيح (عليه السلام) ، ينسب إليه قوله : « ليس هناك من شيء دائم على الأرض . . إلا التغيير »<sup>(١)</sup>

هذا ولقد تنبّهت الشعوب الغربية ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، لموضوع التغيير الذي يسير بسرعة عظيمة في مجتمعاتها ، فبدأت تلاحقه بالبحوث وبالتوقعات العلمية وبالاستعدادات ، لدرجة أنه سادت هناك صيحة ذكية ، وذات معنى واع حصيف ، تقول : « دعونا نستعد لتنظيم المستقبل ، لأن الوقت قد أصبح متأخراً جداً لتنظيم الوقت الحاضر . . !! »<sup>(٢)</sup>

كذلك ظهرت في المجتمع الأمريكي صيحات حديثة نتيجة لسرعة وشدة التغيير ، هذه الصيحات تتحدث عن المستقبل وعن الاستعداد له ، نتيجة لتوقعات علمية مبنية على إحصاءات وأرقام عن حركة الحياة في المجتمع فيما يستقبله من أيام ، بل وأصبحت هناك مقررات تدرس علي مستوى الدراسات العليا في مجال علم المستقبل Futurism ، وصار أصحاب هذه الصيحات يدعون بالمهتمين بالمستقبل . Futurists

وعلى سبيل المثال فإن بعض المحاور الرئيسية لهذه الدراسات التي تمت في أمريكا تقول بأنه بحلول العام ٢٠٠٠م سوف يصل عدد سكان العالم الى ٤, ٦ بليون نسمة ، وتلك زيادة خطيرة ستصل إلى ٥٠٪ من عدد السكان الحالي (وقت تأليف الكتاب المرجع عام ١٩٨١) ، وأن نسبة كبيرة من هؤلاء السكان سوف يكونون فقراء بشكل محزن ، وأن هذا العالم المزدهم لن يكون مستقراً ، بل إنه سيكون عرضة للتمزق والتحطم .

(1) William C.miller: The Third Wave & Education's Future, phi, Delta kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, p.8.

(2) Ibid., p.7.

بل وأكثر من ذلك أن هناك تقريراً عالمياً عن الوضع عام ٢٠٠٠م وقد دفع للرئيس الأمريكي The Global 2000 Report to the president تنبأ واضعوه بأن الطلب على الطاقة النووية سوف يتضاعف ثلاث مرات بحلول عام ١٩٩٠م . إن هناك عالماً مختلفاً تمام الاختلاف جاري التكوين في الوقت الحاضر ، وهذا العالم يتطلب أساليب جديدة للتعامل معه ، كما أنه بالقطع سوف يتطلب إعداد أفراد من نوعيات خاصة .

ولعلنا قبل أن نختم هذا الجزء نؤكد على أن مواجهة التحدي . . تحدي المستقبل المتوقع هذا ، وكذا التغيرات التي تتم الآن . والتي ستم في المستقبل ، هي من عمل التربية بلا شك ، والتي ينبغي أن تكون على استعداد للاستجابة لكل تلك التحديات ومواجهتها بفاعلية .

هذا ومن بين المجالات التي أولاها العلماء الأمريكيون اهتمامهم بالنسبة للتغير ، مجال الأسرة ، فالأسرة الأمريكية كان من المعروف أنها محور الحياة في المجتمع الأمريكي ، وهي الآن تتغير . فسابقاً كانت ذات بناء واضح . . فالأب في العمل . . والأم ترعى شؤون المنزل ، والأطفال بطبيعة الحال هم الركن المكمل لحياة الأسرة . أما اليوم فإننا نجد أن نسبة ١٦٪ فقط من الأسر الأمريكية هي التي يمكن أن ينطبق عليها النموذج السابق ، حيث أن أكثر من نصف الأمهات في المجتمع الأمريكي قد خرجن إلى مجالات العمل المختلفة، وأن نسبة ٤٥٪ من كل الإناث اللاتي تتراوح أعمارهن بين ١٨-٦٤ سنة هن ضمن القوى الأمريكية العاملة .

كذلك فإن هناك نزوعاً نحو الزواج المتأخر . . أو عدمه على الإطلاق ، بالإضافة إلى زيادة سريعة في عدد البيوت التي يعيش فيها طرف واحد من طرفي الأسرة ، أي الوالد أو الوالدة . ففي الفترة من ١٩٧٠ - ١٩٧٦ كانت هناك زيادة

مقدارها ٣٣٪ في البيوت التي ترعاها الإناث . . بمفردهن .  
وما هو أخطر من ذلك . . التغير والتحول في الأخلاقيات ، حيث أصبح  
المجتمع الأمريكي يتغاضى ويتسامح في جانب أخلاقي خطير ، وهو أن يعيش  
الرجل والمرأة تحت سقف واحد ، بينما هما منفصلان تماماً عند الحديث عن الوالدية  
Parenting ، حيث يستقل كل فرد منهما بتربية الإبن أو الابنة . . بعد الاتفاق  
على ذلك فيما بينهما ، وهذا ما يعرف هنا بمصطلح -Living together & Pa-  
renting alone<sup>(١)</sup> . . !! ، بل إن هناك تسامحاً غريباً ومخجلاً من جانب  
المجتمع حين يسمع ويرى المرأة وهي تعيش مع زوجها الجديد . . وعشيقها  
السابق . . تحت سقف واحد . . !!! .

---

(1) Ibid, p.9